المحاضرة الحادية عشر: تابع التاريخ السياسي للجزائر في ظل الحكم العثماني

مراحل الحكم العثماني في الجزائر:

المرحلة الثانية: مرحلة الباشوات [1588-1659 م]

قبل البدء في الحديث عن خصائص هذا العهد، و أهم الأحداث التاريخية التي جرت فيه، لا بد من الاشارة إلى أسباب تغير النظام السابق:

لقد كان ولاة عهد البايلرباي أقوياء، وأصحاب نفوذ واسع، تخطت ساطتهم الجزائر إلى تونس وطرابلس بحكم أنّهم أصحاب فضل في فتح هذين البلدين، وإلحاقهما بالدولة العثمانية، التي كافأتهم على ذلك بإعطائهم امتيازات واسعة و لمَّا كانت مدة حكم هؤلاء البايلربايات غير محدودة فكثيرًا ما تمتد فترة الواحد منهم عدة سنوات في منصبه، و يصبح صاحب مركز قوي، و نفوذ واسع لدرجة أنّ الدولة العثمانية بدأت تشتم رائحة التمرد، ومحاولة الانفصال عنها، والاستقلال بهذه البلاد، فتقرر تقصير مدة حكم الوالي إلى ثلاث سنوات فقط، والتنقيص من امتيازاته السابقة، واختصاصاته، وتغيير لقبه إلى الباشا.

ويذكر بعض المؤرخين أن الانكشارية هي التي ظلت تثير تخوفات و شكوك الباب العالي في نية البايلربايات طوال فترة حكمهم، الأمر الذي جعل من رجال الدولة العثمانية يرون أن السلطة في الولايات الثلاث: الجزائر، تونس، طرابلس تحت حكم رجل واحد قد يشكل خطرا على الإمبراطورية العثمانية، و بالتالي لابد من تقسيم الحكم و فصل الولايات عن بعضها البعض، و إسناد كل إدارة إلى باشا يحكم لمدة ثلاث سنوات، و ذلك لإحكام السيطرة على البلاد ومنع حدوث أي تمرد ضدها.

و بهذا تكون الدولة العثمانية قد فكرت في تأمين وحدة الامبراطورية، مانعة أن تكون إدارة شمال افريقيا كله بيد شخص واحد و لمدة طويلة. و على صعيد آخر فإن هذا التغيير (تغيير النظام السابق البايلربايات إلى الباشوات) يعود إلى الصراع القائم بين طبقة الرياس وجنود الانكشارية، وذلك منذ نشأة الدولة الجزائرية التي قامت وتأسست على أكتاف رجال طائفة الرياس مثل **خير الدين و من خلفه**. و عليه أراد السلطان العثماني أن يخفف حدة النزاع بين الفئتين و خاصة أن فئة اليولداش (الانكشارية) كانت مستاءة من تمتع فئة جنود البحرية بلقب **البايلربايات** أو أمير الأمراء، ولذلك قرر السلطان العثماني "مراد الثاني" إلغاء هذه الرتبة و تعويضها برتبة أخرى هي رتبة الباشا.

وقد تم في هذا العصر تعيين باشا تركي في كلّ من الجزائر، وتونس وطرابلس، وذلك بعد أن كان هناك حاكم واحد يحكم المنطقة كاملة ومقرّه في الجزائر، وقد بدأت تظهر الخلافات بين جنود البحرية الجزائرية (الرياس) وبين جنود البحرية العثمانية عندما بدأ الأتراك بالخلط بين المصالح الجزائرية ومصالح الإمبراطورية العثمانية، وقد برزت قوّة الرياس خلال هذا العصر؛ حتّى أصبحت دول أوروبا تخشى الجزائر وتسعى لإنشاء علاقات تعاونية معها[1].

---

[1] أمال مامون، " مراحل الحكم العثماني في الجزائر"، متوفر على الرابط: https://2u.pw/h2Sl8j8P بتاريخ: 2022/09/22.

و قد تميزت هذه المرحلة من مراحل الحكم العثماني في الجزائر بمايلي:

- تعيين باشا تركي في كل من الجزائر وتونس وطرابلس بعد أن كان هناك حاكم واحد للمنطقة مقر حكمه في الجزائر.
- بداية ظهور التناقضات والخلافات بين جنود البحرية الجزائرية(الرياس) وبين جنود البحرية العثمانية خاصة عندما حاول الأتراك أن يُخْضِعُوا المصالح الجزائرية لمصالح الإمبراطورية العثمانية.
- قوة الرياس الجزائريين ارهبت الدول الأوربية وهو ما دفعهم إلى محاولة إقامة علاقة تعاون معهم.
- يقوم السلطان العثماني بتعيين باشا كل 3 سنوات يقوم بإرساله من تركيا و يستدعيه بعد انتهاء فترة تعيينه، على أن يقوم بإرسال باشا آخر من هناك.

و بالتالي أصبح كل باشا يشعر أنه ليس في حاجة إلى ولاء الشعب مادامت مدة ولايته محدودة ، فأصبح همه الوحيد هو جمع أكبر قدر ممكن من الأموال طوال فترة حكمه. و مادام الحصول على الثروة هو الهدف الأساسي للباشوات فقد أصبحت قضية الحكم مسألة ثانوية لا تهمهم.

- إن انصراف الباشوات إلى السلب و النهب و جمع الثورة قبل عودته إلى القسطنطينية، دفع باليولداش أو رجال الجيش البري أن يثوروا عليهم و يضعفوا نظام الحكم في الجزائر.
- بدأت تظهر الخلافات و التناقضات بين جنود البحرية الجزائرية و جنود البحرية العثمانية، و خاصة عندما حاول الأتراك أن يخضعوا المصالح الجزائرية لمصالح الامبراطورية العثمانية.
- كما ظهر التصادم و التنافر بين جنود البحرية و جنود القوات البرية، و خاصة أن رجال البحرية كانوا يحصلون على غنائم كبيرة من جراء غاراتهم البحرية الناجحة على أساطيل القوات الأوروبية، وهذا الصراع هو الذي تسبب في اضعاف الدولة الجزائرية.

إن هذا الصراع راح ضحيته الأهالي نتيجة ظلم الانكشارية و انصراف طبقة الرياس إلى مصالحها الخاصة و التخلي – تقريبا – عن دورها في الاهتمام بالرعية و مصالحها.

- برزت قوة الرياس أو قوة رجال البحرية الجزائرية إلى درجة أن دول أوروبا أصبحت تخشى الجزائر و تسعى لإقامة علاقات تعاون معها.

و من بين أبرز الأحداث التي شهدها عهد الباشوات على الصعيد الداخلي و الخارجي نذكر:

أ- على الصعيد الخارجي:

عمل باشوات الجزائر على وضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين بسبب تأييد فرنسا لاسبانيا في عدوانها على الجزائر، حيث قام الباشا خضر بتحطيم المركز الفرنسي بالقالة و أسر رواده، و بالمقابل أخذ الفرنسيون يعتدون على السفن الجزائرية وكان رد الجزائر بالمثل، حيث أسر القنصل الفرنسي بالجزائر، و على إثر ذلك تعقدت العلاقات الدبلوماسية الفرنسية مع الجزائر من جهة و مع الخلافة العثمانية من جهة أخرى، فاضطرت فرنسا إلى التفاوض و إبرام معاهدة بتاريخ 1628/09/19 م نصت على مايلي:

-إطلاق صراح الأسرى من الجانبين.

-التوقف عن الأسر من الجانبين.
-مسالمة البواخر الفرنسية في البحر.
-تعيين قنصل فرنسي بالجزائر يتمتع بحصانة دبلوماسية.
-إعادة بناء المركز الفرنسي التجاري بالقالة.
الجدير بالذكر أن فرنسا لم تحافظ على نصوص المعاهدة و قامت بالاعتداء المتكرر على السفن الجزائرية و شواطئها و قتلت الكثير من الجزائريين، و كان رد الجزائر بالمثل بتتبع مراكب فرنسا و أسر ما فيها.
-سوء العلاقة السياسية بين الجزائر وتونس بسبب تدخل البايات التونسيين في بشؤون شرق الجزائر، حيث كانوا يشجعون على قيام الاضطرابات، و تمت المصالحة بين البلدين بإبرام معاهدة صلح عام 1628م.

شنت أوروبا حملة على مدينة الجزائر في أوت 1601 بقيادة الاسباني " جان دوريا (Doria) " و مباركة البابا متكونة من سبعين سفينة حربية و عشرة آلاف جندي من فرنسيين و ايطاليين و اسبانيين متبعة في ذلك خطة الكابتان الفرنسي " روكس "، لكنها باءت بالفشل.
ومن مميزاتها كذلك كثرة الغزوات البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية، و خاصة في عهد الباشا الأول " أحمد باشا " (دالي أحمد) الذي قاد بنفسه حملات عام 1588 هاجم شواطئ نابولي وصقلية وكورسيكا و اسبانيا.

ب- على الصعيد الداخلي:

عرفت الجزائر العديد من التمردات و الثورات امتد لهيبها إلى الأعماق الصحراوية و إلى منطقة القبائل الكبرى نتيجة ارهاقهم بالضرائب، كثورات القبائل (1643) التي اندلعت بسبب زيادة الضرائب على المناطق القبلية ، و ذلك ليتمكن الباشوات من جمع المزيد من المال و بسرعة، و في اعتقادهم أن القبائل لا تثور، بالإضافة إلى الثورة العارمة التي تزعمها رياس البحر من جهة و الجنود الانكشاريون من جهة ثانية ، حيث ثارت الفئة الأولى بسبب قيام الباشا إبراهيم بحرمانهم من المبالغ المالية التي خصصها لهم الباب العالي تعويضا عن خسائرهم في منطقة البحر الأدرياتيكي، و قيامه بدفعها كرشاوي لرجالات الدولة في القسطنطينية حتى يبقوه في منصبه، و من أجل ذلك هاجم رياس البحر قصره و اعتقلوه و أودعوه السجن، ثم بعد ذلك تم ترحيله إلى " إزمير ". أمّا فئة الإنكشارية فقد ثارت على نظام الباشاوات بسبب تطلعها المستمر إلى السيطرة و الحكم بشتى الوسائل.

وبالتدرج انتقلت إدارة الولاية الى الانكشاريين وكسب ديوانهم قوة و نفوذا، وصار الباشوات موظفين فقط برئاسة الاحتفالات الرسمية وبعقد المعاهدات، وانتهى الأمر بسيطرة فرقة الانكشارية على السلطة سنة 1659م، واختفاء نظام الباشوات، وظهور نظام جديد عرف **بعهد الآغوات**، و قد تقرر إعطاء السلطة التنفيذية للأغا رئيس الفرقة العسكرية، أما السلطة التشريعية فقد تقرر أن تكون بيد الديوان و بالتالي أصبحت طائفة الرياس تحتل مكانة ثانوية في شؤون الحكم.